

الفصل التاسع

ترابط الأفكار وتداعياها

في حديثي الأخير عندما عالجت موضوع العادة، كان في ذهني — أساسا — عاداتنا الحركية، أي العادات المتعلقة بسلكنا الخارجي ومظهره .
يبد أن سبل تفكيرنا وعمليات شعورنا تخضع أيضا في مجموعها لقانون العادة .

واحدى نتائج ذلك هي الظاهرة التي تعرفونها جميعا تحت اسم تداعى الأفكار وترابطها . وهي الموضوع الذى أحب أن توجهوا انتباهكم اليه منى الآن .

لعلكم تذكرون أن الوعى تيار انسيابى دافق موصول بالأشياء والمشاعر والأحاسيس والميول الاندفاعية .

لقد اتضح لنا مما سبق ذكره أن صورها، وحالاتها، نبضا، وإيقاعا، ووقعا، ونغما، تشبه كثيرا من المجالات، أو الموجات الأخرى . لكل مجال أو موجة محور ارتكازه، أو بؤرة حيوته، على صورة أو هيئة أكثر الأمور بروزا فى تفكيرنا.على حين تكون كل الأشياء الأخرى المحيطة به أقل بروزا وأكثر غموضا بما فى ذلك هامش الميول الاقتمالية والاتجاهات الناشطة المصاحبة للبؤرة والهامش على السواء .

فاذا وصفنا العقل بهذه الصفة : الانسيابية، ذات السيولة كنا أقرب ما نكون الى الطبيعة .

وقد يبدو لنا لأول وهلة كما لو أن كل شيء غير محدود ولا جازم في انسيابه وفي سيولة هذه الموجات المتتابعة التي يقفو بعضها أثر البعض الآخر ، ولكن التعمن والتفتيب والفحص تبين لنا أن لكل موجة تركيبا أو مقوما يمكن تفسيره بتركيب ومقومات الموجات التي سبقتها مباشرة . وهذه العلاقة بين الموجة اللاحقة والموجات السابقة يعبر عنها بقانونين أساسيين للترابط أو التداعي ، يسمى أولهما قانون المماسية ، ويسمى الثاني قانون المشابهة أو المشاكلة .

فقانون المماسية قوامه أن الأشياء موضوع التفكير بالقياس الى الموجة المقبلة كانت في خبرة سابقة — تالية للأشياء المثلثة في الموجة التي مرت عندئذ . فالأشياء التي اختفت أو زالت كانت قبل ذلك مجاورة لها في العقل وعندما تسرد حروف الهجاء ، أو تصلى لله مجاهرا بصلاتك أو مخافتا بها ، أو عندما ما يذكرك منظر الشيء باسمه أو اسم الشيء بموضوعه أو شكله فإن كل ذلك يتم عن طريق قانون المماسية الذي بوساطته تقترح الموصفات للعقل .

أما قانون المشابهة أو المشاكلة فقوامه أنه عندما يحضق المماسية في وصف ما يحدث فإن الأشياء اللاحقة ستبرهن على أنها تشبه أو تشاكل الأشياء السابقة على الرغم من أن الاثنين لم يسبق ممارستها معا من قبل ولم يندمجا معا في خبرة واحدة قبل ذلك .

وعندما نخلق فوق أجنحة الخيال فعابا ما يكون هذا هكذا . وعندما نهرب الى الوهم فعابا ما تكون حالتنا على هذا النحو الذي يقرره قانون المشابهة أو المشاكلة .

فاذا أوقفنا شرود أفكارنا في حالة انسيابها وسألنا أنفسنا :

« ما الذى حدا بنا الى التفكير أو التأمل فى هذا الشيء أو الموضوع بالذات — الآن ؟ » فاننا نستطيع — فى كل الحالات تقريبا — أن نقتضى أثره ، ونزد وجوده الراهن الى شئ أو موضوع سابق أدخله فى عقلنا أو اعترض طريق تفكيرنا طبقا لواحد من هذين القانونين : قانون المماسه والقرب ، أو قانون المشابهة والمشاكلة .

ان السياق الكلى لجميع ما تذكره مما حصلناه أو اكتسبناه — مثلا — هو نتيجة لقانون المماسه وحسب . فكلمات قصيدة شعرية ، أو جداول علم المثلاث وحقائق التاريخ وخصائص المواد كلها معروفة لنا كنظم محددة منسقة أو مجموعات من الأشياء تلتحم فى نسق يثبت بالتكرار الفائق الاحصاء والذى يفكرنا أى جزء واحد منه ببقية الأجزاء الأخرى .

وفى العقول الجافة المملة تنساب كل التابعات العقلية تقريبا على هذا النسق الريب من التكرار والتداعى على خلاف العقول الذكية الخلاقة الابتكارية — التى تستطيع أن تكسر هذا النسق الريب وتنفذ من إساره بكل سهولة فى أى وقت — ونجد أن مجالا واحدا من الموضوعات العقلية أو الأفكار يولد غيره على نحو لم يسبق فى تاريخ التفكير الانسيابى كله أن يكون له ضرب أو مثيل .

ان حلقة الاتصال هنا — عادة — هى نوع من المماثلة بين الشئين موضوعى التفكير ، وهى مماثلة قد تدق وتمق بحيث إننا — على الرغم من شعورنا بها — لا نستطيع أن نحلل مصدرها وأساسها الا بصعوبة ، كما يحدث مثلا عندما تقرن صفة الذكورة باللون الأحمر ونجد شيئا أشويا فى اللون الأزرق الباهت ، أو عندما نرى ثلاثة وجوه لشخصيات ثلاث ، فيذكرنا الوجه الأول بقطة ، والوجه الثانى بكلب ، والوجه الثالث ببقرة صفراء فاقع لونها تسر الناظرين !

وطبيي أن علماء النفس قد تعمقوا في موضوع الأسباب المحتملة لعملية التداعي أو الترابط .

ولقد حاول بعضهم أن يثبت أن قانوني المماسية والمشابهاة ليسا مختلفين ولا متنوعين اختلافا أو تنوعا جوهريا .

أما أنا فأميل الى الاعتقاد بأن ظاهرة الترابط أو التداعي تتوقف على تركيبها الدماغى . وليست نتائج مباشرة لكوننا مخلوقات عاقلة منطقية . وبعبارة أخرى عندما نصبح أرواحا بلا جسوم فقد ينساب وعينا على نحو مختلف ويخضع لقوانين مختلفة .

لقد نوقشت هذه المسائل في كتب علم النفس التى تناولتها بالشرح والتحليل وآمل أن يهتم بعضكم بقراءتها ومتابعتها في هذه المصادر .

أما أنا فسأغفل أمرها كليا في المناسبة الراجئة ؛ لأنكم -كمعلمين - لا يمينكم بصفة خاصة الاحقيقة الترابط أو التداعي ، سواء آكانت صادرة عن مشتقات روحية أم دماغية أم أى شىء سواهما ، فلتكن ما تكون ، قابلة لأن ترد لقانون واحد ، أو مستعصية على هذا الرد والدمج .

وأيا كان مقطع الرأى في مصدرها واشتقاقها فان هناك حقيقة هامة هى التى يمينكم أمرها ، فطلابكم - أيا كانوا وأنى كانوا - هم على أية حال قطع صغيرة من آلات ترابطية .

وقوام تربيتهم وتعليمهم هو أن ننظم في داخلهم ميولا واتجاهات محدودة جازمة تربط الشىء الواحد بالآخر : الانطباعات بالنتائج ، والانطباعات ونتاجها بردود الأفعال ، وردود الأفعال بما تتمخض عنه ، وهكذا الى مالا نهاية .

وكلما كانت أجهزة الفرد الترابطية وافرة زاخرة بالدسامة والتنوع

والغزارة — كان أقدر على ملاءمة نفسه للعالم الذى يعيش فيه ملاءمة كافية وافية .

ويستطيع المعلم اذن أن يحدد رظيفته لنفسه ويصوغها فى قالب الذى يفي بحاجاته وحاجات طلابه فى نطاق « الترابط والتداعى » وكذلك فى نطاق « رد الفعل الفطرى والمكتسب » .

وهذه تقوم أساسا على بناء أنظمة نافعة للترابط وأجهزة مفيدة للتداعى فى عقل الطالب .

وهذا الوصف يبدو أوسع وأشمل من الوصف الذى بدأت به عندما افتتحت الكلام عن هذا الموضوع .

ولكن عندما تفكر أن انسياب التداعى وتدفق الترابط الموصول عندنا — أيا كان — يضدران طبيعيا فى ردود أفعال مكتسبة أو سطوك ، فاننا تتين بصفة عامة أن الحقيقة واحدة بالقياس الى الظاهرتين ، وأنها تنسحب على النوعين وتنطبق على التداعى مثلما تنطبق على رد الفعل الفطرى أو المكتسب . وما يثير الدهشة والتعجب ذلك العدد الهائل من العمليات العقلية التى نستطيع تفسيرها اذا ما تمكنا من فقه قوانين الترابط ؛ اذ لا تكاد فهما حتى تمكنا من تفسير تلك العمليات تفسيراً واضحاً .

يبد أن المشكلة العظمى التى يأخذ الترابط على عاتقه حلها هى : لماذا ينهيق بالذات مجال معين من الوعى تشكل على هذه الصورة أو على هذا النحو بالذات ؟ لماذا يظهر أمام عقلى ؟

قد يكون مجالاً لموضوعات وأشياء متخيلة ، وقد يكون أشيئه أو موضوعات متذكرة أو محسوسة ، وقد يتضمن عملاً قد انعقد عليه العزم .

وفي كلتا الحالتين فافتنا عندما نحلل المجال الى أجزاءه فافتنا تتبين أن تلك الأجزاء قد تجمعت من أجزاء في مجالات أمام الوعى نتيجة لواحد أو آخر من قوانين الترابط التى فصلناها الآن .

هذه القوانين هى التى تدير شؤون العقل وتحكمه ... فالاهتمام وهو ينتقل من مركز ثقل الى مركز آخر يحرفه ، والاتباه — كما سنرى فيما بعد — يوجهه ويقوده ويحول بينه وبين أن يمضى فى طريق مترج ملتو .

إذا فهنا هذه العوامل فهما واضحا أمدتنا بسند بسيط متين يعيننا على فهم العمليات النفسية التى تدور فى تلك الآلة المعقدة التى نسميها الانسان .

ان « طبيعة » الفرد — « شخصية » الفرد ، لا تعنى فى الحقيقة شيئا سوى الشكل المعتاد لترابطاته .

ومهمة المربى الأساسية ووظيفته المميزة هى التخلص من الترابطات أو أنواع التداعى السيئة أو الخاطئة وطرحها ونبذها ثم بناء غيرها فى الشخصية وتوجيه الاتجاهات الترابطية الى أكثرها ثمرة واهصابا للشخصية . ولكن هنا — كما هو الشأن فى القوانين والمبادئ البسيطة — تكمن الصعوبة فى التطبيق .

فعلم النفس يستطيع أن يمدنا بالقوانين ، وتبقى للكياسة والموهبة والقدرة وحدها مهمة تطبيقها لتؤتى أكلها .

يبد أنه من الخبرات الشائعة جدا ، المألوفة لنا جميعا ، أن عقولنا قد تنتقل من موضوع لآخر عن طريق مجالات متعددة توسطية للوعى .

ووساطة أو توسط طرائق التداعى لدينا فى صورتها المحددة الجازمة

تعتبر جانبا من الوعي لا يقل تأثيرا عن الجانب القائم على وحدة الشكل أو النظام في صورتها المجردة .

ابداً من أية فكرة-أياديات — تجد أن سلسلة أفكارك برمتها موصولة المثول تحت تصرفك .

فاذا أخذنا كلمة أو إشارة أو تلميحاً — أنطق بها أمامكم كنقطة بداية في التداعي — فلن تكون هناك نهاية أو حد للأنواع المختلفة الممكنة من الاتجاهات والاقترحات التي تثيرها في عقولكم تلك الكلمة أو الإشارة .

لنفرض أنني أقول كلمة : « أزرق » مثلا فبعضكم قد يفكر في زرققة السماء والجو الحار الذي تقاسيه الآن ، ثم يمضي من التفكير في زرققة السماء والجو الحار الى التفكير في الملابس الصيفية ، أو ربما في علم الظواهر الجوية . والبعض الآخر قد يفكر في الطيف وفسولوجية رؤية الألوان ، ثم ينساب تفكيره الى أشعة أكس X والتأملات الفلسفية الحديثة الخاصة بالجسم ، وثمة فريق آخر سيتجه تفكيره الى الشرائط الزرق أو الأزهار الزرق المثبتة فوق قبعات إحدى الصديقات ، ثم يتذكر الأيام الخوالي والذكريات البعيدة .

على أن هناك آخرين قد ينجحون الى التفكير في اشتقاق الكلام واللغويات .

وقد تدرك كلمة أزرق كمرادف لظاهرة الغم أو السوداء ثم تسلب سلسلة من التداعي ترتبط بسيكولوجية الغم والسقم فتح وتشر نفسها فكرة اثر أخرى ، وهكذا .

ولكن المسألة لا تقف عند هذا الحد .

فالكلمة الواحدة — عند الشخص نفسه — تحدث تداعيا مختلفا لدن

سماعها في أوقات مختلفة وهي تثير ترابطات عديدة بالقياس الى ما يشغل بال الشخص عندئذ .

ولقد قام البروفسور مونستربرج Munsterberg باجراء هذه التجربة منهجيا مستعملا نفس الكلمات أربع مرات متتابعة على فترات متقطعة — بين كل فترة وأخرى ثلاثة أشهر — وكانت هذه الكلمات بمثابة اشارات أو تلميحات لأربعة أشخاص مختلفين كانوا موضوع الملاحظة .

ولم يجد البروفسور مونستربرج أى ثبات في تداعيهم الذى صدر عن كل واحد منهم عند سماعه لنفس الكلمة في المرات المختلفة .

وبالاختصار فإن المحتوى الكلى الممكن وجوده لوعى الفرد يسهل الوصول اليه من أية نقطة من نقاطه. ولهذا السبب لا نستطيع التنبؤ مقدما بقوانين التداعي — فاذا بدأنا من المجال الراهن الحاضر كنقطة بداية فلن نستطيع أن نحسب مقدما فيما سيفكر الفرد فيه بعد خمس دقائق .

فالعناصر التى قد تستعيد نشاطها وقوتها في أثناء العملية وأجزاء المجال المتتابع التى تدور حولها الترابطات أساسا والتفرعات الشائبة الممكنة للإيحاء تبلغ في عددها وابهامها والتباسها حدا يصعب معه تحديدها أو الجزم به قبل اتضاح الحقيقة .

ولكن — على الرغم من أننا لا نستطيع أن نصطنع قوانين التداعي مقدما فاننا نستطيع دائما أن نصطنعها الى الوراء وتقتفى أثرها رجما فنحن لا نستطيع أن نقول الآن فى أى شىء سنفكر بعد خمس دقائق ولكن أيا كان هذا التفكير فاننا نستطيع بعدئذ أن نتبعه وتقتفى أثره عن طريق الحلقات الوسطية للمماسلة والمشاكلة ونربطه بما نفكر فيه الآن .

ان الذى يخيب عندنا سبق الرؤية مقدما وينلب تنبؤنا على أمره هو

الدور المتنقل الذى يقوم به كل من البؤرة والهامش — بل وفي الحقيقة الدور الذى يقوم به كل عنصر من عناصر البؤرة والهامش في حد ذاته وتداعى ودعوة الأفكار التالية .

فمثلا كنت أتلو قصيدة شعرية للشاعر لوكسلى هول Locksley Hall
لكى ألهى عقلى عن حالة حيرة وتردد وجدت نسي فيها بخصوص وصية قريب لى مات .

والوصية لا تزال رابضة في عقلى كجزء هامشى جدا أو فوق الهامش في مجال وعيى . وتجنح القصيدة في إبعاد اتباعى عنها — حتى أصل الى السطر الذى يقول فيه الشاعر .

«أنا — وارث كل المصور في السجلات المتقدمة للزمن ..» .

فرعان ما تحدث كلمات — « أنا وارث كل المصور » . ارتباطا كهربيا بالفكرة الهامشية للوصية — وهذه بدورها تجعل قلبى يضرب بشدة تلهفا على ما يمكن أن يؤول الى بمقتضى هذه الوصية فألقى بالكتاب من يدي ثم أذرع أرض الغرفة جيئة وذهابا في حالة قلق تمثل لى فيها ثروتى المستقبلية وهى تتدفق على عقلى .

وأى جزء من مجال الوعى يكون أكثر وفرة بمكانيات الاثارة الاتعمالية — من بقية الأجزاء — فانه يشرب وينشط ويستلم على بقية أرجاء مجال الوعى وتكون له الغلبة في المبادرة والمبادأة . ثم ان انتقال مراكز تقل الاهتمام من جزء لآخر يجرف التيارات في أنواع متعددة من الطرق المترجمة المتوترة ، على حين يسرى النشاط العقلى هنا وهناك كما تسرى شرارة النار الموقدة في الورق المحترق .

بقيت نقطة واحدة يلزم على الإشارة إليها وأكون بذلك قد وفيتكم
حُكم عن موضوع الترابط أو التداعي .

لقد رأيتم كيف أن كلمة واحدة مثيرة تستطيع أن تستدعي زميلاتها
وصويحباتها بقوة جذب شديدة أكثر مما تفعله غيرها من الكلمات وبذلك
تجرف تيار تفكيرنا بعيدا عن مساره ومداره السابق .

والحقيقة أن كل جزء من مجال الوعي يجنح الى أن يلوذ برفقائه
ويستدعي شركاءه ، ولكن اذا كان هؤلاء الشركاء والرفقاء متعددي
الاختلاف نشب بينهم التنافس ، وبمجرد أن يستلعي واحد منهم أو عدد
قليل منهم على الباقين أو يصبح أكثر فاعلية فانه يجرف الباقي من أمامه
ويكتسحه ويخلفه وراءه ويمضي هو قدما الى غايته .

وقلما تدور العملية حول نقطة واحدة في المجال العقلي ، أو حتى حول
المجال كله الذي يكون مباشرة في حالة مرور .

الذي يحدث هو نوع من التجمع أو التكتل تدخل فيه أجزاء من المجال
قد مضت بالفعل ثم أصبح لها القول الفصل .

وهكذا نعود كرة أخرى الى قصيدة لوكسلي هول Locksley Hall
— فكل كلمة أتلوها بنظامها الرتيب كما وردت في القصيدة لا ترد الى ذهني
بسبب الكلمة التي سبقتها فحسب — التي تنتهي شفتاي من تلاوتها —
ولكنها بالأحرى نتيجة لكل الكلمات التي سبقتها مجتمعة من القصيدة .

فكلمة « المصور » مثلا تستدعي كلمات « في السجلات المتقدمة للزمن »
— عندما تسبقها كلمات « أنا وارث كل ال ... » ولكن اذا سبقتها كلمات
« لأنني لا أشك في أن ال ... » فانها تستدعي كلمات « سبب واحد متزايد
يمضي ... » .

وبنفس الطريقة اذا كتبت على السبورة الحروف أ — ب — ت —
ث — ج — ح — خ .. فانها ستوحى اليكم بالحروف د — ذ — ر —
ز .. ولكن اذا كتبت حروف أ — ب — فانها توحى اليكم — ان كانت
توحى اليكم بشيء — بتكلمتها د — ي — هـ أو أبدية . فالنتيجة تتوقف
على التجمع الكلى — حتى اذا كانت معظم الحروف الفردية واحدة في
الحالتين .

ان هدفي العملي من ذكر هذا القانون هو أنه يترتب عليه أنكم عندما
تقرون ترابطات بالتداعي في عقول طلابكم فينبغي ألا تعتمدوا على إشارات
أو تلميحات أو مفاتيح مفردة ، ولكن أكثرها منها ما استطتم الى ذلك
سيلا .

أقرن رد الفعل المطلوب بعديد من التجمعات السابقة . لا تسأل السؤال
دائما — مثلا — بالطريقة نفسها . لا تستعمل المادة نفسها في المسائل
الحسابية . نوع أمثلك .. وأكثر منها بقدر ما تستطيع الخ الخ .. وعندما
أعالج معكم موضوع الذاكرة سنزيد من معلوماتنا في هذه النقطة ونفتح
لنا آفاق أوسع .

واذن فلنكتف بهذا القدر من الحديث عن الموضوع العام للترابط
أو التداعي .

يبد أننى أحب أن أتركه وأنتقل الى قضايا أخرى (وسنجد أنه يدخل
في تركيبها جميعا وأنها زاخرة بمضامينه) أجد نفسى مضطرا الى حثكم
على أن تخلقوا في طلابكم قدرة يكتسبون بها عادة للتفكير تقوم على
التداعي والترابط .

إن كل حكام الانسانية — الذين يسكون بزمامها ويتحكمون في

مصيرها — من الأطباء وحراس السجون الى زعماء السوقه وكبار الساسه ، يتتابعون على هذا النسق لكى نستطيع أن تصور أحمالهم وأثقالهم ومثالبهم .

فاذا فعلتم مثل ذلك (بالاضافه الى ما يدور فى خلدكم بشأنهم) كأجهزة كثيره صغيره من الآلات الترابطيه ، فانكم ستندهشون من قدرتكم على النفاذ فى إدراك أعمالهم وإجراءاتهم ، وكذلك على فعاليتكم العمليه فى احراز النتائج التى ستصلون اليها .

اتنا تفكر فى معارفنا — مثلا — على اعتبار أنهم يتميزون باتجاهات أو ميول معينه ، هذه الاتجاهات والميول ستثبت — فى كل حاله تقريبا أنها اتجاهات ترابطيه ، أو ميول بالتداعى .

فبعض الأفكار لديهم تصاحبها دائما أفكار معينه أخرى ، وهذه بدورها تصاحبها مشاعر معينه وبواعث أو دوافع خاصه للاتفاق أو الاختلاف — للمضى أو الاحجام اذا أثار الموضوع تلك الأفكار الأوليه فيمكننا التنبؤ بالحصيلة العمليه . « أنماط الشخصيه » هى اجمالا وبالاختصار « أنماط للتداعى والترابط » .